المحاضرة الأولى

م.د امينة عبد الكريم عبد الستار

ماهية التاريخ:

يعتبر التاريخ المادة الرئيسة والأساسية التي اختص بها عدد كبير من أهل العلم ؛ وذلك لأهمية علم التاريخ في حياة الشعوب. إن التاريخ هو السجل الكامل لمختلف الوقائع التي وقعت على وجه الأرض منذ بدأ الخليقة إلى يومنا هذا، لذا فهو واحد من أهم العلوم التي تدرس باستمرار في مختلف دول العالم.

إن للتاريخ أهمية قصوى في حياة الأمم والشعوب، لذا نجدها قد أولته رعايتها البالغة، وسعت إلى جمعه في شكل مدونات عن سير الأجداد أو عبر المحافظة على الموروثات أو من خلال القصص الشعبي؛ ليؤدي دورًا مهمًا في تعبئة وجدان الناشئة، حتى ينشب الشبل ناسجًا على منوال أجداده، محافظًا على قيم شعبه الموروثة كابرًا عن كابر.

هذا، وقد احتل التاريخ مكانة عظيمة عند المسلمين، وذلك بتوجيه من القرآن الكريم، قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)، وقال أيضًا : (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)[بل إن الله ـ سبحانه وتعالى ــ أمر المسلمين أن يطيلوا النظر في مصائر الغابرين من الشعوب السابقة عِظة واعتبارًا، قال: (افَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ). فدراسة التاريخ عند المسلمين ليست للتسلية ولا لإضاعة الوقت وملء الفراغ أو لمجرد المعرفة وحفظ الحكايات، خاصة تاريخ الأمة الإسلامية على مر العصور وكر الدهور؛ وإلا لما ذكر الله ــ سبحانه وتعالى ــ تاريخ السابقين وقصص النبيين في كتابه العظيم.

***معنى التاريخ في اللغة:**

التأريخ في اللغة مصدر من أرخ بلغة قيس وهو اللفظ الشائع عند العرب ، وتاريخ كل شيء من حيث اللغة هو غايته ووقته الذي ينتهي إليه ، ولهذا يقال : فلان تاريخ قومه في الجود أي الذي انتهى إليه ذلك، و ربما استعملت الكلمة بمعني تراجم الرجال(الببليوجرافيا)، ومثال ذلك تاريخ البخاري للإمام محمد بن إسماعيل البخاري(194 ــ 256هـ / 810 – 870 م)، وقد تستعمل بمعنى أخبار الماضي كعنوان" تاريخ الرسل والملوك" للإمام محمد بن جرير الطبري (224 – 310 هـ / 839 – 923 م) وهناك اختلاف بين العلماء في أصل لفظ " تاريخ " هل هو لفظ عربي أم هو لفظ فارسي ثم استخدمه العرب .

***معنى التاريخ في الاصطلاح:**

أما المعني الاصطلاحي للتاريخ عند أغلب المؤرخين فهو يقتصر على التقصي وطلب الحقائق عن تلك الأحداث التي وقعت في الماضي وهذا، وقد اختلف المؤرخون في تعريف التاريخ، فعرفه ابن خلدون(المتوفى عام:808هـ/1405م) بقوله :"فنّ التّاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال وتشدّ إليه الرّكائب والرّحال..... إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيّام والدّول ..... وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيّات الوقائع وأسبابها عميق").ويقول السَّخَاوي (831 – 902 هـ / 1427 – 1497 م) : "إن التاريخ فن يُبحث عن وقائع الزمان من حيث التعين والتوقيت وموضوعه الإنسان والزمان"). بينما عرفه الكافِيَجي (788 – 879 هـ / 1386 – 1474 م) ، بأنه " تعيين وقت لينُسب إليه زمان مطلقًا سواء كان مضيًا أو كان حاضرا أو سيأتي" .ويعرفه المؤرخ الإنجليزي هرنشو1869)Hearnshaw – 1946م) بقوله:" قد تدل كلمة تاريخ على مطلق مجرى الحوادث الفعلي الذي يصنعه الأبطال والشعوب ، والتي وقعت منذ أقدم العصور واستمرت وتطورت في الزمان والمكان حتى الوقت الحاضر ، هذا، وقد يظن البعض أن التاريخ ما يبحث في أحداث الماضي وحده، وهذا الاعتقاد ليس صحيحًا؛ فالتاريخ يبحث في الماضي والحاضر والمستقبل معاً وعلى ضوء هذا، فإن كلمة التاريخ تعني مجموعة الأحداث التي وقعت في الماضي والتي تقع حاليًا، ثم التنبؤ على هدى ذلك وفي ضوئه بما سوف يقع مستقبلًا .

***هل التاريخ علم أم فن؟!**

هناك اختلاف بين أهل العلم والتاريخ والأدب في وضع التاريخ وإلى أي فرع يُنسب من فروع الإنسانية. فبعض العلماء ومنهم المستشرق (و.س. جيفونز)، قال: "لا يمكن أن يكون التاريخ علمًا لأنه يعجز عن إخضاع الوقائع التاريخية لما يخضعها له العلم من المعاينة والمشاهدة والفحص والاختبار والتجربة ، وبذلك لا يمكن في دراسته استخلاص قوانين علمية يقينية ثابتة، نحو ما هو موجود بالنسبة للعلوم الطبيعية كعلم الكيمياء مثلاً .وقد أيد هذا الرأي (كارل بوير) في كتابة " عقم المذهب التاريخي " ومن الأدلة التي أوردها على كذب المذهب التاريخ: إن التاريخ الإنساني يتأثر في سيره بنمو المعرفة الإنسانية وهذا يوضح عدم إمكانية التنبؤ بكيفية نمو معارفنا العلمية، وبالتالي فلا يمكن التنبؤ بمستقبل سير التاريخ الإنساني وهذا يعني أنه يجب أن نرفض إمكان قيام علم تاريخي اجتماعي .

أما بعض رجال الأدب فيرون أنه فن من الفنون : "وإن العلم لا يمكنه أن يعطينا عن الماضي سوى العظام المحروقة اليابسة وأنه لابد من الاستعانة بالخيال لكي تُنشر تلك العظام وتُبعث فيها الحياة، ثم هي بحاجة كذلك إلى براعة الكاتب حتى تبرز في الثوب اللائق بها ..

ويؤيد ابن خلدون هذا الرأي بوصف التاريخ فن من الفنون، ففي مقدمته عرف التاريخ ،بقوله:" إن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال ، وتشد إليه الركائب والرحال وتسمو إلى معرفته السّوقة والأغفال وتتنافس فيه الملوك والأجيال ، ويتساوى في فهمه العلماء والجهّال .ويتفق مع هذا الرأي بعض المؤرخين الذين يروون أن التاريخ نوع من الأدب فهو يهتم بالتدوين القصصي للأحداث. والقصة نوع من الإنشاء الأدبي، وهو فن يحتاج إلى براعة الكاتب ليظهر لنا القصص التاريخية بمظهرها المناسب .

ويرى كثير من العلماء والمفكرين القدماء والمحدثين، من أمثال: أفلاطون وهيجل وماركس و أوجست كونت، أن التاريخ علم يبحث في الماضي ويتبع تطور المجتمعات في العصور السابقة. ويخلص المؤرخ الإنجليزي بيوري الموضوع بقوله: " إن التاريخ علم لا أقل ولا أكثر .

ويرد هرنشو على مَن قال : إن التاريخ ليس بعلم، بقوله: " إنه على الرغم من أنه لايمكننا أن نستخلص من دراسة التاريخ قوانين علمية ثابتة على غرار ما هو كائن في العلوم الطبيعية فإن هذا لا يجوز أن يجرده من صفة العلم ، ويرى أنه يكفى في إسناد صفة العلم إلى موضوع ما أن يمضى الباحث في دراسته، مع سعيه إلى توخي الحقيقة وأن يؤسس بحثه على حكم ناقد أطرح منه هوى النفس، وباعد نفسه عن كل افتراض سابق، مع إمكانية التصنيف والتبويب فيه .

ويضيف هرنشو: إن التاريخ ليس علم تجربة واختبار بل هو علم نقد وتحقيق وإن علم الجيولوجيا هو أقرب العلوم الطبيعية إليه، فالمؤرخ والجيولوجي يدرسان آثار الماضي ومخلفاته حتى يستخرج ما يمكن عن الماضي والحاضر على حد سواء، بل عمل المؤرخ يزيد عن عمل الجيولوجي بدراسته وتفسيره العامل البشرى الانفعالي للوصول إلى الحقائق التاريخية قدر المستطاع .

وعلى ذلك، يمكن القول: إن التاريخ مزاجًا من العلم والأدب والفن في آن واحد.